

١ / إدراك مشوه أم رؤية جزئية ؟

- عودة البصر
- فانتازيا اليقين
- الدرس المستفاد
- امام المحاكم
- نظرة بيولوجية

obeykandi.com

يبدأ هذا الفصل بقصة روتها الصحافة منذ عدة سنوات ، فقد ظهرت في «نيويورك» قصة رجل يدعى أوليفر ساكس ، ويدعوه أهله وأصدقاؤه فيرجيل . ذلك الرجل مر بسلسلة من الأمراض في طفولته ، فظل لا يبصر من جرائها لمدة ٤٥ عاماً، إلى أن حثته خطيبته ليبحث عن علاج للمياه البيضاء (عتامة في عدسة العين) التي يعاني منها . وقيل أيضاً إنه كان يعاني من التهاب الشبكية الصبغى ، ذلك المرض الذي يؤدي إلى تآكل الشبكية ببطء ، ولكنه ظل يميز الضوء والظلام ويستطيع تحديد اتجاههما ، وكذلك يمكنه معرفة ظل اليد إذا تحركت أمام عينيه . وعند جراح العيون ، وبعد استرجاع التاريخ الطبي له ، ثم إجراء فحص دقيق لعينه ، وجد الطبيب أن الشبكية مازالت تستطيع القيام بوظيفتها . وهكذا قرر الجراح أنه يستطيع القيام بإجراء جراحة لعينه اليمنى لإزالة المياه البيضاء ، ثم زرع عدسة جديدة ليستعيد الرؤية بها . وتباينت ردود أفعال أسرته تجاه هذه الجراحة ، فقد رفضتها والدته قائلة : «إنه يبدو على نحو ممتاز هكذا» ، وساكس نفسه لم يبد استحساناً لذلك الأمر . ولكن خطيبته كانت شديدة التصميم ، وقد فضلت السعي من أجل الشفاء الجزئي فقد كان ذلك في رأيها أفضل من عدم الرؤية مطلقاً . وفيرجيل لن يفقد شيئاً ، وعلى العكس تماماً فقد يربح رؤية لعالم أكثر اتساعاً .

وأجريت الجراحة . وفي خضم القلق والخوف من كل المتجمعين حول سريره ، قام الطبيب برفع الضمادة من فوق عينيه . وجاءت اللحظة الدرامية شديدة الوقع ، والتي تحكى لحظة أعظم من كل القصص ، التي روت مشاعر الانعتاق والخلاص . في هذه اللحظة بدأ مجال البصر يعبر مجال عدم تمييز الرؤية إلى الواقع ، الذي برز فجأة بكل أبعاده المدهشة . في تلك اللحظة التي استعاد فيها ساكس بصره ، ظل صامتاً كأنه لم يشعر بأن شيئاً حدث - نهائياً - ولم ينفجر ليعبر عن فرحة طاغية قائلاً : «أنا أستطيع الرؤية» ، بل لم ينبس بكلمة ، وظل يحدق في ذهول بوجه خال من التعبير أو أى انفعال ذى معنى ، ولم يتجه ببصره إلى الجراح الذي وقف مشدوهاً وممسكاً بالضمادة . فقط حينما تحدث الجراح قائلاً : «حسناً» ، بدت نظرة تمييز على وجه فيرجيل .

وعلى الرغم من أن فيرجيل كان يستطيع في تلك اللحظة أن يبصر «فسيولوجياً» أو «حرفياً» ، لكنه ببساطة شديدة قابل الأشياء كلها فجأة ، ودون توقع أو فهم ، فتأخر في التعبير عن انفعاله ؛ فقد كان عالماً من أشياء غير محددة وخطوط وألوان ، تداخلت جميعها ، ولم تكن لديه رؤية مسبقة واضحة لتحديد مغزاها - أو حل شفرتها - فقد كان عالماً ضبابياً لا وضوح لهويته .. ومن داخل ذلك الضباب خرج صوت الطبيب ، وحينذاك - فقط - أدرك أن هذا الضوء وذلك الظل كانا وجهاً .. وأنه حقيقة بدأ يرى وجه الطبيب .

بعد تلك الجراحة خرج فيرجيل مبصراً ، إلا أنه عانى عتامة ذهنية مفاجئة ، فهو لم يكن قادراً على إيجاد معنى الأشياء وكشف هويتها ، ولم يستطع بلورة إدراكها ، فهو لا يملك ذاكرة الرؤية التي تعينه على أمره هو شخص اعتاد الأشياء بسماعها أو الإحساس بها ، ولم تكن له قدرة على الاستدلال عليها في وقت متزامن مع رؤيتها . فالإنسان الذي اعتاد الإبصار يعتقد أنها وظيفة أنوماتيكية تحدث تلقائياً ، ولكنها في حقيقتها وظيفة ضخمة ولا تحدها قوالب ، فهي تعبر عن مخزون لعمليات تحددت وتكونت في السنوات الأولى من الحياة ، حتى أصبحت تلقائية لأنها تتكرر آلاف المرات في كل لحظة .

ويتجادل أخصائيو النفس والأعصاب مع الفلاسفة ، ومع كل من يهتم بمعرفة الحد الذي يتقابل فيه خلايا المخ والعين مع النفس لاستقبال الأشياء ومدلولها للفرد . وقد نشرت بعض الآراء ، التي تعيد تصور قصة ساكس مع التفسير العلمي لها . فنمو خلايا قشرة المخ يتأثر بفقدان الطفل لحاسة مهمة - كالإبصار - في سن مبكرة ، لأنها في تلك المرحلة العمرية تستطيع التكيف لاستقبال الأشياء حولها . أما في حالة فيرجيل فيتم تكيف الأشياء في الوقت ، وليس في المكان ، وذلك يفسر معاناته في الإبحار في عالم الرؤى ، الذي لا يعتمد على السمع أو اللمس . والإبصار ينتقل بأكثر مما تراه العين من خلال التدريب المستمر على الإحساس الكامل بالعالم ، أو بعبارة أخرى يمثل الإبصار القدرة على رؤية العالم والتفاعل مع تلك الرؤية ، مشتملاً على الخبرة المسبقة بذلك الشيء . وهكذا تصبح الرؤية حاسة فردية خاصة بكل إنسان ؛ فالأشياء التي نراها تدعمها الخبرة ، ثم تحديد الرؤية للشيء بجانب ما نراه . وعادة ما تمتزج تلك المرئيات بتفسير آخر فتختلط بين الصورة الصادقة الحالية مع تلك المسبقة ، ثم تتأثر بوجهة نظر الراي فيما يراه ، فتظهر بصورة ذاتية جديدة تتكون بداخله ؛ لأن حل مغاليت الأشياء وتقسيمها وتنويعها ثم تفسيرها لا تمثل شيئاً يولد الإنسان به ، ولكنه يتكون وينمو مع ظروف الحياة الخاصة بكل شخص .

فانتازيا اليقين

ومدلول الرؤية والرؤية المسبقة يمكن تقديم مثال لها في شريط فيديو ، يحكي عن شخص أسود اللون يدعى روندى كينج ، تلقى ضرباً وحشياً بالهراوة من رجال الشرطة في لوس أنجلوس . وعلى الرغم من أن ذلك الشريط يعطى دليلاً واضحاً على مدى سوء المعاملة التي تلقاها هذا الشخص ، إلا أن جدلاً ونقاشاً مستمراً دارا حول وجهات النظر المتعددة والافتراضات الممكنة جدلاً حول حقيقة الرؤية لتلك الأحداث ؛ فقد رأى معظم الناس أنه يتضمن أسلوباً بدائياً وعرقياً لإظهار القوة . ذلك الأسلوب تمثل في ضرب إنسان أسود لا يملك سلاحاً ، ولا وسيلة للدفاع عن

نفسه . أما هيئة المحكمة - فى سيمى قالى - فقد رأت الأمر مختلفاً ، فرجال الشرطة فى موضع خطر بضربهم لذلك الإنسان ، وأنهم - وعددهم ٢٦ شرطياً - كانوا يؤدون واجبه على خير وجه !!!

وقد بدا الشريط وكأنه مدخل غامض للحقيقة فقد استند الدفاع عن رجال الشرطة إلى تقديم الشريط بطريقة أخرى بعد استدعاء خبراء لهذا الغرض ؛ فقد عرضوا شريط الفيديو بحيث تقف الصورة عند لحظات معينة ، ثم يقدم تفسيراً لما يراه الحضور من تحرك جسم كنج ، وموضع الهراوة المستخدمة لضربه . ومن وجهة نظر الخبراء لم يجدوا حركة زائدة أو غير ضرورية لاستخدام الهراوة مع ذلك الإنسان ، الذى قيل عنه إنه مثل الدب فى قوته ، ومحصن ضد الألم ، وكان يعانى نوبة عصبية شديدة بعد تناوله عقاراً مخدراً . وهكذا كان رجال الشرطة يؤدون مهمة صعبة وقانونية ؛ ليتمكنوا من التحفظ على ذلك المتهم .. وبذلك يصبح هذا الشريط دليلاً على ما قاسوه ، ويوضح اللحظات الصعبة التى خلقها المتهم لهم جميعاً .. لا على وحشية المعاملة التى واجهها المتهم من رجال الشرطة .

وعلى الرغم من الاتجاه المخالف الذى مثل وجهة نظر كثيرين ، إلا أن المحكمة أعلنت تأييدها لموقف الشرطة ، ولم يلق المحلفون بالاً إلى حقائق واضحة صاحبت هذه الحادثة البشعة ، واستندوا فى حكمهم إلى فانتازيا اليقينية (Positivist fantasy) .

وبالاستناد إلى تلك الفانتازيا ، قد نفسر عدم قدرة فيرجيل على تفسير مشتملات العالم الذى واجهه فجأة ، فلم يكن لديه «شريط» سابق للقراءة فى ذاكرته ؛ لكى يحيط بما حوله فى تكوين متناسق ليحس بما تعنيه هذه الأشياء . وبالرجوع ثانية إلى شريط الفيديو ، فلو تصورنا عرضه مع الإيحاء بأنه يمثل القهر العنصرى ، وكيف أن البيض الذين يمسكون بزمام الأمور هم أنفسهم الذين يستخدمون الهراوة ، سيرى المشاهد حينذاك أن تلك الممارسة تقدم نموذجاً للعنصرية البدائية .

وقد أعيد عرض الشريط نفسه بساحة القضاء فى سيمى قالى . وفى هذه المرة اختلفت فحواه ، وبدا فى اتجاه مختلف ؛ فقد ظهر تضارب أساليب الحياة ، أو بقول آخر الطرق الخاصة فى ترتيب وتنظيم العالم . فقد طلب المدافعون فى هذه القضية رؤية الشريط بصورة مجردة ، ودون مؤثرات خارجية لتأكيد أفكار معينة . وواحدة من تلك الأفكار أن «السود» أخذوا مكانهم فى العمل فى سنوات حكم الرئيسين ريجان وبوش ، تلك السنوات التى تعد «سوداء» فى حياة الدولة ، وقد كان ذلك الاتجاه مصدراً للاضطراب المدنى والفساد الاجتماعى ، وصوروا رغبة البعض فى سلب

حقوق الآخرين. وبناء على ذلك لابد من تلقينهم درساً لا ينسونه ؛ ليوضعوا في مكانهم الحقيقي . ولقد كانت تلك التعبيرات ، والتركيز على «الأسود» و «السود» أمام الكونجرس وساحات القضاء وأمام الجمهور ووسائل الإعلام مؤهلاً للجميع كي يشاهدوا الوقائع بالروية المعدة لها قبل عرضها ، وأن يستحضروها بالرؤية نفسها ، وهكذا التصق هذا المعنى بصدهاء الثقافى لتقبل الغالبية ما حدث من إمالة في الحقيقة.

الدرس المستفاد

وعلى ذلك النحو المشار إليه ، فإن محصلة الرؤية الجزئية والرؤية المنقولة التي تنفذ إلينا من تكنولوجيا التكاثر الحديثة وتقنيات الوراثة ، يتم تكوينها بإمعان النظر في تفاصيل هذه الموضوعات ؛ حتى لا تخيد عن الرؤى المنطقية ، فلا نتعصب ضدها ولا ننساق وراء ما تتيحه من تطبيقات ؛ فقد وجدت تلك الوسائل كثير من المواقف والصلات ، التي لا يمكن قبولها أو تحديدها اجتماعياً وثقافياً أو تقنيهاً حسب القوانين السائدة ، وكان لزاماً على المسؤولين إعادة التعريف بالمفاهيم الثابتة وإيجاد إطار أو تشكيل جديد لما تكون حالياً من مفاهيم ؛ فبتطبيق تلك الوسائل أصبح رحم المرأة يعد من المنافع العامة ، والأجنة تعد حملاً مشاعاً ، والحمل مقترناً بالأسر والعبودية ، ويات مفهوم الأمومة الطبيعية مشوشاً ، لا يخضع لتشريعات الأديان أو القيم الاجتماعية .

أمام المحاكم

وقد بدأت سلسلة من القضايا الناجمة عن تلك الاستخدامات ، بظهور قضية الطفلة «م» أمام محكمة نيو جيرسى كأول مولود لأم بديلة . وشغلت ساحة القضاء بإيجاد الحدود الجديدة التي صنعها العلم ، ولم تكن قد استقرت بعد في التشريعات الموجودة آنذاك . فبدأت المحكمة في إعادة تصوير الشكل الطبيعي للأسرة ، وفصله وتحديد عما استجد من علاقات وصلات للقرابة والنسب . فقد أنتجت التكنولوجيا طفلها في القرن العشرين ، الذي يولد بلا أب وبلا أم - بالمفهوم التقليدي المتوارث - وظهرت الحاجة إلى مجموعة من التعريفات الضرورية ؛ لوضع الإطار للصورة الملائمة للأسرة ، فلا بد من ملاءمة الصورة لتتفق مع الأساليب المرعية والعرف السائد حتى تكون الأسرة مقبولة اجتماعياً ، ويمارس أفرادها حياتهم بصورة تامة : يؤدون واجباتهم ويعرفون حقوقهم ويكونون كياناً اجتماعياً جديداً محد ، حسب الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع .

وبطريقة مماثلة .. كانت آنا جونسون ، المرأة السوداء التي حملت كأُم بديلة ووضعت مولوداً أبيض اللون . ثم بدأت مشوارها باحثة عن حقها في حضانتها . فهي لا ترتبط به جينياً ، ولكن ارتباطها به نشأ ، ونما خلال فترة الحمل ، وباءت محاولتها بالفشل ، ورفضت المحكمة طلبها ؛ حيث إنها لا تمثل للطفل إلا أمّاً

بالتنشئة خلال فترة الحمل (Foster mother) أو هي الحامل البديل (Surrogate carrier) ، أو لحظة تعاقدية (Contractual moment) أوجدتها التكنولوجيا ، وكل هذه مسببات لا تؤهلها للأمومة . ودار جدال بأن تلك القضية تحمل جانباً عنصرياً بين طياتها ، فلطالما راود تلك السيدة السوداء حلم جميل بأن تدخل العالم الأبيض . وذلك الجانب من حياتها جعل وجهة النظر العنصرية فى النظر إلى طلبها فى كفالة طفلها تلقى قبولاً كتفسير لهذا الطلب ، أكثر من إحساسها بالأمومة لمن لا ينتمى إليها وراثياً . أما عن الطفل ، فعلى الرغم من التحليل المعمل الذى حدد المادة الوراثية للطفل الوليد الذى استضافته هذه السيدة فقد اعتبروا أن هناك غموضاً فى انتمائه .

ومما لا شك فيه أن كل إنسان يحتاج لتحديد صلة النسب والقرابة ؛ حتى يشعر بكيانه ، واعتباره فرداً فى أسرة تنتمى للمجتمع الذى يعيش بداخله ، ومن واجب المجتمع أن يكفل له ذلك الحق . أما بالنسبة لحالة آنا جونسون ، فقد حاول القاضى فى المحكمة الابتدائية التمسك بأن الصلة والمودة التى تكونت بداخلها أثناء الحمل ، ورابطة الأمومة التى شعرت بها تصبح عميقة وثابتة وتبقى صامدة - فقط - من خلال أطفال تحملهم أمهاتهم . أما عندما يكون للطفل ثلاثة آباء ، فذلك يعد ضرباً من ضروب الهلوسة المستحدثة ، تلك الوسائل التى أوجدت للطفل أن يمتلك خمسة آباء . فالأسرة الحقيقية الطبيعية المتفق عليها دينياً وخلقياً ، هى التى تشمل الأب والأم والأبناء ، أما باستخدام التكنولوجيا الحديثة التى أوجدت صلات وعلاقات أسرية واجتماعية غير محددة ، فلا بد من إيجاد تشريع وتقنين الصلات والعلاقات بصورة قانونية لتحديد الهويات بصورة مقبولة ومميزة .

ولهذا عندما ترتبط طريقة ومنطق الروية بما أوجد العلم من تضارب بعد اتساع المجال فى طرق التناسل .. والممارسات الجديدة ، تنشأ التفسيرات لاستعادة تكوين الأسرة وتحديد صفاتها بدقة ودون تنميق للعبارات المستخدمة ؛ حتى لا تفسد هذه العلاقات . وخاصة بعد إمكانية تطبيق الإخصاب خارج الرحم ، ثم نقل الجنين لغرسه فى رحم الأم البيولوجية أو الأمر البديلة .

نستطيع البدء مع نيكولاس هارتسوك ، الذى عاش فى آخر القرن السابع عشر، حينما قرر أنه رأى شخصاً صغيراً متكوناً بداخل الحيوان المنوى ، وذلك بإمعانه النظر فى المجهر الضوئى . وقد أكد ذلك ما لخصه أرسطو قبله فى أن الحيوان المنوى نفسه هو الروح والمصدر الحيوى للأجيال ، ثم سجل علماء التشريح أن الفرق الرئيسى بين الرجل والمرأة - بعد اختلاف الجهاز التناسلى - يكمن فى الجهاز الهيكلى . هذه الاختلافات فى الحوض وجمجمة الرأس ؛ فقد وجدوا أن جمجمة رأس

نظرة بيولوجية

أكبر من جمجمة المرأة . وذلك يلائم وظيفة كل منهما ؛ لأن الرجل يمسك ببذور الحضارة فكرياً ، بينما عظام الحوض فى المرأة تتناسب مع وظيفتها التناسلية والاجتماعية . وتلا ذلك دراسات علماء الجماع فى القرن التاسع عشر ، الذين أضافوا أن هناك اختلافاً بين مخ الرجل ومخ المرأة فى الحجم والشكل والوزن .

وحاول العلماء بعد ذلك اكتشاف طرق جديدة لتفسير ملائمة تركيب الجسم لوظائفه المختلفة . وكانت دائماً النظرة الغالبة هى أن الحمل هو الوظيفة المختلفة ، ولأزم تلك الرؤية اعتقاد بأن السيدة التى تنهى حملها بإرادتها تلامزها لعنة طيلة حياتها . وظلت المحاولات العلمية مستمرة لتحديد وظيفة خلايا المخ ومقارنتها مع شكل المخ وحجمه فى الرجل والمرأة وخاصة مع إتاحة الأجهزة الأكثر تطوراً ، وأيضاً تمت دراسة العظام وتحديد مكوناتها سعياً وراء تحديد السلالات والنسب من خلالها ، وعمل تصنيف دقيق يقوم على الرؤية المنطقية العلمية فقط ؛ ليضفى على المعلومات قوة التفسير .

ومن الجدير بالذكر ذلك التطور الهائل الذى حدث فى طريقة النظر إلى الأشياء ، والتى حددتها المجلة الطبية (Journal of Medicine) ووصفتها بأنها تغيير هام فى وجهة نظر الأطباء فى مجال طب الأجنة وعلوم الوراثة ، بعد التطور السريع المذهل الذى أوجد طفرة فى تحسين القدرة على فحص الأجنة وهى داخل الرحم ؛ فقد مكنتهم التقنيات الحديثة من وضع محتويات الرحم - الذى اعتبر مظلماً لفترة قريبة - تحت ضياء الملاحظة العلمية . رفع حجاب الغموض عن ذلك الحرم الداخلى المعتم ، وفوجئ العلماء بأن من كانوا يطلقون عليه «الجنين الخجول الغامض» ليس طفلياً سلبياً كما اعتقدوا دائماً ، بل مخلوق صغير نشيط ، يتصرف بحرية وحركة ، فيبدو وكأنه طفل فى الثالثة من عمره بداخل حضانة مدرسية . وبعد تطوير الفحص بالموجات فوق الصوتية ، استطاع العلماء معرفة وتحديد التصرف الطبيعى للجنين فى مراحل الحمل المختلفة ، ثم تحديد ما يلزمه - إذا اقتضت الضرورة - من علاج أو تعديل أو تصحيح للوسط الذى يحيا بداخله ؛ فقد بدا الجنين كشخص واضح ، يمكن استقباله ومعرفة الصعوبات التى قد تواجهه .

وبعد تلك التطورات العلمية المستمرة ، اختلفت الرؤية للأجنة ، وبممارسة النظرة الجديدة نجدهم أطفالاً يمشون بخطى صغيرة ، لهم مشاكل أحياناً . وعلى الرغم من أنهم يعتمدون على أمهاتهم فى الغذاء ، إلا أنهم يتمتعون بقدر كبير من الاستقلالية فى تنظيم نموهم . وهذه الرؤية الجديدة أوجدت - بدورها - مجموعة من المفاهيم الثقافية والافتراضات والتوقعات ؛ وخاصة بعد إتاحة هذه المعرفة للأمم ، فقد أمكنها الآن أن تعرف الحقائق وترى جنينها .. ومن هنا ينبع التساؤل : كيف يمكن لهذه الأم أن تتعايش مع هذه الرؤية الجديدة ؟ وكيف لذلك المخلوق الصغير أن يصبح فى خطر ، وهو موجود فى حصنه بداخل الرحم ؟